٨
البحث عن حل

إيجاد حلول واضحة ونهائية وحاسمة للمشاكل الدولية أو الإقليمية أو المحلية ليس أمرًا سهلاً أو عملاً ميسورًا ؛ لتعقد هذه المشاكل ، وتشابك خيوطها ، وامتداد جذورها ، وانتشار آثارها ؛ هذا فضلاً عن أن ثم أسبابا ثلاثة تعمل على تغييم رؤية الحلول الصحيحة وتغييب الحسم بشأنها ، تلك هى : المجال السياسى ، وعدم نضج الطبيعة البشرية ، وقصور الثقافة العامة مع نقص المعرفة الكونية .

فمقادير الشعوب ومصائر الأمم تُبرم وتُنقض فى ساحة السياسة ، وللسياسة قواعد للعمل وأساليب فى التصرف تخالف الأعراف المتواضع عليها بين الناس عادة ، وتجانب النظم الأخلاقية المتعارف عليها لدى الجميع ، ومن لا يعرف لغة السياسة ومفردات عملها يعجز عن التصرف ويفشل فى الوصول إلى أى نجاح ، ونتيجة لذلك فإن الواقع السياسى إمّا أنه لا يجيز للعمل فيه إلا من كان مؤهلا له بسلوكيات معينة ، إما أنه يفرض على من يعمل فيه أن يلتزم هذه السلوكيات ، حتى وإن خالفت طبيعته أو عارضت أخلاقياته ؛ ومن ثم فإن العاملين فى الحقل السياسى ، غالبًا ما يكونون ذوى طبائع خاصة تؤهلهم للعمل به وتساعدهم على النجاح فيه ، أو أن يتحولوا إلى أشخاص مزدوجى الشخصية ، لهم فى حياتهم العامة أسلوب خاص للعمل ، ولهم فى حياتهم الخاصة نظام آخر للعيش .

فى السياسة من ثمّ لا يوجد مجال حقيقى لمفاهيم العدل والحق ، فتلك مفاهيم تتعلق بالحياة الفردية الإنسانية ولا تصل إلى حلبة السياسة إلا ضمن معانى مختلفة ، ولإضفاء شرعية على واقع حاصل أو قوة مؤكدة ، ذلك أن اللغة الأساسية فى السياسة هى لغة الأمر الواقع (Accomplished Fact)، خاصة إذا كانت تحميه قوة رادعة ، وتذود عنه صلات كثيرة مؤثرة ، فى دوائر النفوذ العالمية أو الاقليمية أو المحلية ، حسب الأحوال .

يعنى ذلك أن مقادير الشعوب ومصائر الأمم تُبرم وتنقض ، وفقا للأمر الواقع ، والصلات المؤثرة فى دوائر النفوذ ، بعيدًا من مفاهيم الناس عن معنى الحق ، وخلافًا لتقديرات البشر عن مدلول العدل . ففى مجال السياسة يُعَدّ الحق ما وقع بالفعل ، ويعتبر العدل ما تحميه قوة مؤثرة .

وجدير بالذكر أنه فى المفهوم القانونى ، حتى فى النطاق الوطنى لأى دولة ، لا يكون للحق أى قيمة ما لم تَحمِه دعوى ، تُخول صاحب الحق اللجوء إلى السلطات للحصول على حكم قضائى يثبت حقه ، ثم تنفيذه بقوة السلطة ، فالأمر قريب بين كل من المجالين : الدولى والمحلى ، لا حق بغير قوة ، ولا عدل دون نفوذ .

وهذا المفهوم ليس وليد العصر الحاضر ، ولا هو نبت النظام الدولى الحالى ، لكنه واقع مؤكد على مدى العصور ، وإن بدا واضحًا فى الآونة الأخيرة ، بسبب التأكيد عليه من جانب المفكرين والمحلّلين والنقاد . ويمكن لإثبات حقيقة سريانه على مدى التاريخ ضرب أمثلة عديدة ، غير أنه يُجزئ عن ذلك ، ويكفى فى هذا المجال ذكر مثلين واضحين . فإثر الفتح العربى لمصر لم يدخل المصريون الإسلام ، بل ظلوا على مسيحيتهم مدة ثلاثة أو أربعة قرون ، حتى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى ، حين بدءوا

يتحولون إلى الإسلام زرافات ووحدانا . وفور الفتح العربى وفدت إلى مصر هجرات استيطانية كثيرة من أعراب شبه الجزيرة العربية ، وأقاموا فى الصحراء على حواف الوادى فى صعيد مصر ، الذى كان جوه يناسب الأجواء التى اعتادوا عليها ، ووضعوا فواصل وحواجز بينهم وبين أهل مصر الأقباط ، وفى الجزء الثانى من كتاب « وصف مصر » ، الذى وضعته جماعة من العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية ، بيان محقّق لذلك ، يصف كيف أن هؤلاء البدو كانوا يغيرون على القرى التى يقيم بها المصريون ، فى الوادى حول النيل ، ليسلبوهم وينتهبوهم ثم يعودوا إلى الصحراء فارّين بالغنائم . واقترح العلماء الفرنسيين ، للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة ، أن تقوم فى مصر حكومة مركزية قوية تعمل على دفع البدو من حواف الوادى إلى الوادى نفسه ، ليتخالطوا مع المصريين ويتعايشوا معهم ، وهو ما فعله محمد على والى مصر فيما بعد ، ومن ثم صار البدو مع الفلاحين شعبًا واحدًا ، وغير الأمر الواقع من الطبيعة السكانية والتقاليد السائدة فى مصر .

وفى عهد السلطنة العثمانية ، وقبل أن تتحول الخلافة الإسلامية إليها ، قام السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح (١٤٥١-١٤٨١م) بغزو القسطنطينية (بيزنطة) سنة ١٤٥٣ وحوّلها إلى عاصمة للسلطنة سماها استانبول (أو إسلام بول) وظلت مقرًا للسلاطنة الذين صاروا خلفاء المسلمين فيما بعد ، حتى نُقلت العاصمة إلى أنقرة ١٩٢٢ . ومازالت استانبول بلدًا تركيًّا ، حوله إلى ذلك ، هذا الأمر الواقع الذى حدث إثر غزوها ثم استمر .

السياسة يمارسها رجالها ، ويباشرها قادة لها وعاملون فى حقلها . وهؤلاء غالبًا ما يصدرون فى أعمالهم عن نظر إلى صناديق الانتخاب فى

البلاد الديمقراطية أو يضعون فى تقديرهم حسابات التهييج الشعبى والتدليس القولى والتملق الجماهيرى فى البلاد ذات النظم الشمولية . وهم فى كل قول أو فعل يتصيدون تأييدًا لهم من الناس ، ولو بالكذب ؛ وتعضيدًا لهم من الجماهير ، وإن كان نتيجة للارتجالية ؛ ذلك أن رجل السياسة يعمل دائمًا على أن يحصد فى حياته ، وربما على الفور ، نتائج عمله التى لا يرى فيها نجاحًا إلا بالوصول إلى السلطة والبقاء فيها أطول فترة ممكنة ؛ وهذا مما يخالف طبائع الأشياء ، وقد يؤدى إلى أعمال تضر بمصالح الشعوب ، على المدى الطويل ، أو تحقق كوارث للأمم نتيجة الانفعال والتسرع والجرى وراء سراب المجد الموهوم . ولتلافى هذه المخاطر ، فقد حاولت بعض البلاد الديموقراطية أن تحدَّ من النتائج السيئة والمدمرة لأعمال الساسة ، ومن ثم أناطت دقائق الأمور بأجهزة ومؤسسات تتكون من متخصصين وعلماء يعملون فى صمت ، وبغير نظر إلى شهرة متسرعة أو مجد متعجل ، فيرسموا سياسة الدولة فى كافة المناحى السياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية والإعلامية والعسكرية وغيرها ، بحيث لا يترك للساسة إلا أمر التنفيذ وتقدير المواءمة وتحديد الملاءمة .

والطبيعة البشرية لم تنضج بعد بصورة كافية ، فلا هى نمت روحيًا ولا هى سمت خلقيًا ؛ والاستثناء من ذلك لم يزل فرديًا ونادرًا ؛ وفى هذا الصدد ، يقول الأثارى الأمريكى ج .هـ . برستيد فى كتابه الشهير « فجر الضمير » ، إن فجر الضمير بزغ فى مصر القديمة وتوهج فيها ، قبل ألفى سنة على الأقل من ظهور العبرانيين (آباء الإسرائيليين) ، وإن البشرية لم تكد تخطو خطوة واحدة بعد النظام الأخلاقى الذى ظهر فى مصر .

بأخلاقيات الماضى البعيد ، حيث كانت البشرية محدودة ، والمشاكل

ساكنة ، والنفوس صافية ، والأماكن متباعدة ، والأطماع مرفوضة ، والمعلومات قاصرة ، لم تزل الناس تعالج المسائل المعقدة وتواجه المشاكل المتفاقمة وتعيش فى العالم الذى صار قرية واحدة . بل إن التقدير السديد يرى أنه نتيجة لعوامل كثيرة فقد ظهر عنصر جديد ، هو منطق التبرير ولغة الأيديولوجية ، قلب من شأن الأخلاقيات فى تزييف واضح وتحريف خطير . ونتيجة لهذه اللغة وذلك المنطق فقد أصبح الغزو يسمى وطنية ، والقتل بطولة ، والسرقة عمولة ، والخيانة تفاهم ، والنفاق كياسة ، والظلم عدالة .

وهكذا فإن مجرد مراسم شكلية ومحض تلاعبات لفظية أدت إلى تخطى النظام الأخلاقى ، حتى على مستوى التعامل الفردى أو الوطنى ، بحيث أصبح المتمسك بالأخلاق والمُعْنَى بالضمير فردًا مغتربًا عن قومه وربما عن البشرية جمعاء .

فى هذا الجو المسموم بالتزييف والتحريف لأبسط القواعد وأنقى المبادئ تترعرع الاتجاهات المتطرفة والنزعات المتعصبة والادعاءات العدوانية ، ويسهل تهييج الناس وتوجيههم بالإشاعات الكاذبة والأساطير الموهومة والافتراءات الباطلة ، وتسكينهم فى أحلام زائفة أو توثيقهم بخرافات ضالة ، وليس أدل على صحة ذلك من أن كثيرًا من اليهود مازالوا يعيشون فى نفس الأفكار والمقولات التى عاش عليها بنو إسرائيل منذ ٣٠ قرنًا مضت ، وأن كثيرًا من المسلمين مازالوا يعيشون فى نفس المعارك وذات الشعارات التى حدثت بها الفتنة الكبرى فى الإسلام منذ ١٤ قرنًا مرت . هذا إلى أن الحرب العالمية الثانية التى مات فيها ملايين من الشباب والأبرياء قامت بسبب حرائق عنصرية أشعلها النازى بأقوال حادة وشعارات حارة ،

فلما هُزم النازى بدا الوضع كله كابوسًا مزعجًا ، لا أساس له ولا صحة فيه .

وثَمّ قصور حاد فى الثقافة العامة ونقص شديد فى المعرفة الكونية . فإذا كانت الأمية الأبجدية تضرب أطنابها بعمق فى كثير من مناطق الشرق الأوسط (كما فى مناطق متعددة فى كافة أنحاء المعمورة) فإن الأمية الثقافية والأمية السياسية تزيد عنها وتعلو عليها بكثير ؛ فأغلب الناس – سواء بين العرب أو الإسرائيليين – ليست لديهم فيما عدا ما يلزمهم لكسب العيش ، أى ثقافة حقيقية أو معلومات صحيحة ، فى التاريخ أو الاجتماع أو الفن أو السياسة أو غيرها ، وكل ما عندهم فى ذلك إشاعات غير محددة أو نثارات غير موثقة أو شذرات غير مؤكدة ، وهم فى الغالب لا يقرءون ، وإن حدث وقرءوا ولو كتابًا ، فغالبا ما يكون من الكتب سطحية التناول ساذجة النتائج ، تتصل بموضوعات الإثارة أو ترتبط بعوامل الانفعال . وعندما انتشر التليفزيون فإنه أصبح فى بلاد العالم الثالث ، ومنها أغلب البلاد فى الشرق الأوسط ، وسيلة للترفيه وليست طريقة للتربية ، تقدم إلى جانب الترفيه برامج علمية وثقافية وسياسية ، عميقة ومبسطة وجذابة . هذا إلى أن كثيرًا من البلاد ، وخاصة تلك الشمولية ، تفرض إظلامًا (تعتيمًا) كاملاً على أغلب المعلومات المهمة ، سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أو معرفية ، وهى معلومات يصبح من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، تكوين رأى صحيح أو تحديد فهم سليم ، بغير تحصيلها وتحليلها .

وفى نطاق الموضوع ، فإن أغلب العرب لا يعرفون حقيقة التاريخ أو الفكر أو الواقع الإسرائيلى ، كما أن أكثر الإسرائيليين لا يعرفون ذات

المسائل عن العرب . بل إن التاريخ العام لكل من أبناء الثقافة العربية وأتباع الثقافة اليهودية لم يزل ينقصه الكثير . وعلى سبيل المثال ، فإن اختفاء اللغة الهيروغلوفية (المصرية القديمة) والديموطيقية (لهجتها الأخيرة) انتهى إلى اختفاء كل الجوانب العلمية والمعنوية فى الحضارة المصرية . وقد أدى فكّ شفرة هذه اللغة إلى معرفة الكثير من حضارة مصر القديمة ، بما أثبت وجود روابط كثيرة ومتعددة بين هذه الحضارة وبين اليهودية ، ثقافة وشريعة (وهو ما دللنا عليه علميا فى كتابنا Religion for the Future المسجل فى مكتبة الكونجرس الأمريكية فى يناير ١٩٩٣) .

أما المعلومات الكونية ، فالمعرفة الإنسانية حالاً (حاليًا) صفر منها . ذلك بأن جانبًا من هذه المعرفة ظهر لبعض الحضارات القديمة ، وأهمها مصر ، ثم تنوقل شفاهًا إلى أن اندثر بفعل عوامل كثيرة ؛ وقد أدى فك شفرة اللغة الهيروغليفية القديمة ، واجتهادات بعض العلماء ، إلى ظهور حروف غير متكاملة من هذه المعرفة ، كما يبين — على سبيل المثال — من كتاب The Great Pyramid Decoded أى : حل شفرة الهرم الأكبر ، وكتاب Her-Bak الذى يستقرئ بعض المعلومات الكونية من عقل ووجدان مصر القديمة . وفى الوقت الحالى ، فإن بعض الجهود تحاول استعواض الجهل البشرى بالمعرفة الكونية عن طريق العلم الذى يسمى ParaPsychology أو ما وراء علم النفس ، وهو علم له موسوعة ضخمة ، وله كراسى لدراسته فى جامعات ديوك بالولايات المتحدة ، ولندن ببريطانيا وموسكو بالروسيا ، وليس من شك فى أن وصول البشرية إلى معرفة كونية ، ولو أولية ، سوف يساعدها على تفهم الكثير من مشاكلها ، وإيجاد حلول لها أسلم وأفضل ، ومن هذه المشكلة ذلك الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل .

وفى هذا الصدد ، فإن تقدم علم الفزياء أدى إلى التوصل إلى نظريات مهمة ، منها أنه فيما تحت المستوى الذرى ، فإن الجسيمات Particles تتمتع بتلقائية وذاتية ، وأن ما يبدو لنا يقينًا وحتمًا ، هو فى الحقيقة احتمالات مفتوحة تلعب فيها الإرادة الإنسانية دورًا كبيرًا ، ويتصل فيها كل جزئ – بما فيها الإنسان – بالكون كله . يعنى ذلك أن ما نظنه مشكلات محلية هو فى الحقيقة أمر يتصل بالجميع ، ولا يمكن حله جزئيا حلاً سليمًا .

ذلك موجز لأهم العناصر التى تعوق وتعرقل الوصول إلى حل واضح ونهائى وحاسم للمسألة الفلسطينية ، وللصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل ، لم يكن ذكرها تزيدًا لا مبرر لَهُ أو إطنابًا لا فائدة فيه ، بل كان أمرًا مهمًا لوضع كافة عناصر المنظومة جنبًا إلى جنب ، مايظهر منها واضحًا للمراقب ، وما كان خفيًا وراء الأحداث ، يؤثر فيها ويحكم نتائجها ، وإن لم يكن جليًّا محددًا إلا بعد التحليل والتدقيق ، ثم التوصل إلى كافة جوانب المعرفة .

إذا استقام ذلك فى الفهم والتقدير ، كانت الخطوة التالية هى استجلاء أسس الشخصية اليهودية والشخصية العربية ، لتحديد دوافع كل منهما فى الصراع بينهما ، وأسلوبها فى التصرف ، ومدى تقبلها للحلول التى تحسم الصراع .

نتيجة لتاريخ طويل من عيش اليهود فى الشتات ، أقلية بين أغلبيات مختلفة ، يتمسكون بشريعة مغايرة لشرائع الآخرين ، ويتشربون ثقافة قد تبدو للغير غامضة أو سرية ، فقد وقع عليهم اضطهاد ثقيل ، ربما شارك

بعضهم فى استجلابه بتصرفات خاطئة ، وكانت النتيجة أن تكون لديهم شعور عميق بعدم الأمن ، على المستوى الفردى والجماعى ، سواء بسواء . وقد ظلوا طوال فترة الشتات ، أكثر من خمسة وعشرين قرنًا ، يؤمنون بأن الرب سوف يرضى عليهم ويزول غضبه عنهم حين يُعيدهم إلى أرض فلسطين ، حيث يقيمون وطنًا لهم ، أو دولة عندما شاع نظام الدولة الوطنية منذ القرن التاسع عشر ، ويعيدون تأسيس الهيكل المقدس ؛ وفى هذا القرن الأخير ، نشأت الصهيونية كنظرية سياسية (أيديولوجية) لليهودية ، تعمل على إعادة إقامة دولة لليهود . ومع الوقت ، ومداعبة الآمال ، واستغلال الظروف ، صارت الصهيونية أيديولوجية اليهود عامة ، عدا نُدْرةً منهم . وبدأ اليهود جميعا فى إنشاء الدولة ، بالهجرة أو بالمال أو بالنفوذ ، بعضهم يتعلق بذلك على أساس دينى ، وأكثرهم يقوم به على أساس تاريخى . ذلك بأن بعض اليهود يرون أن أرض فلسطين كلها هى أرض الميعاد التى وهبها الرب لهم منذ عهد أجدادهم ، وإلى امتداد أحفادهم ؛ بينما يرى آخرون أن حقهم على هذه الأرض كلها حق تاريخى ، بدأ منذ دخل إليها بنو إسرائيل الأوائل ، ثم أقاموا فى الشمال دولة إسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، وأقاموا فى الجنوب دولة يهودا وعاصمتها أورشليم ؛ وهم يضيفون إلى ذلك أنه منذ أخرجوا من أراضيهم لم تقم فى أرض فلسطين دولة قط ، ولم تكن القدس (أورشليم) عاصمة لأى دولة .

تجمع اليهود إذن على مشروع واحد ، هو إنشاء دولة إسرائيل التى تكون أورشليم (القدس) عاصمة لها ، وتحتل كل أرض فلسطين ، وسواء عن اعتقاد دينى أم على تقدير تاريخى فإن الجميع اعتنقوا الصهيونية كأيديولوجية سياسية . والأيديولوجية – كما هو مستقر علميًا – تقوم أساسًا

على مبدأ الإطلاق ، بمعنى أنها تؤمن أن ما تعتقد فيه مُطْلَقٌ لا مطعن عليه ، ونهائى لا جدال فيه ، بهذا كانت ضراوة أعمال العنف والإرهاب التى قامت بها بعض المنظمات الصهيونية العسكرية ضد العرب المسلمين والمسيحيين ، لها فى المنطق اليهودى ما يبررها لهم ، فقد كانوا – فيما اعتقدوا – ينفذون أوامر الرب أو كانوا يحققون وضع التاريخ . وإذ كان اليهود – على مدى العصور – قد تمهّروا فى ستر أهدافهم وتمرسوا على طىّ أغراضهم ، طالما كانوا يعيشون فى جو معادٍ ويقيمون مع جماعات غير مصادقة ، فإنهم درجوا فى كل ما يتصل بإنشاء واستقرار الدولة على إخفاء أهدافهم البعيدة وتمويه أغراضهم الحقيقية ، فكانوا يعدون للحرب وهم يتكلمون عن السلام ، ويعملون على نقض قرارات المجتمع الدولى (الأمم المتحدة ومجلس الأمن) وهم يطالبون بتنفيذها .

أما العرب ، وهم الطرف المقابل فى المعادلة ، فقد كان من نتيجة الاحتلال الأجنبى الطويل لبلادهم ، وأسلوب حياتهم القَبَلى الذى لم يتغير كثيرًا ، أن أصبح لديهم شعور عميق بالتخوف من الأجنبى وعدم الاطمئنان للغريب ، وهم يرون أن المستعمرين قد احتلوا بلادهم طويلاً لنزح ثرواتها ، وأنهم مازالوا يعملون من أجل هذا الهدف . وقد كان زرع إسرائيل فى وسط العرب اتجاهًا مقصودًا من الاستعمار الغربى لفصل جانب من العرب عن جانب آخر ، ودق وتدٍ للغرب فى صميم المجتمع العربى . والعرب الذين لم يُنسب إليهم اضطهاد لليهود ، منذ قامت الحضارة الإسلامية وحتى أنشئت دولة إسرائيل ، يعجبون لفكرة الاضطهاد هذه ، وربما لا يستسيغونها ، ولا يرون أنها يمكن أن تكون سببًا لإنشاء دولة يهودية على أراضيهم ، وبعد إبعاد سكانها من مسلمين ومسيحيين . ويرى العرب

أن وعد الله عن الأرض تحقق وتنفيذ ، ثم انتهى عندما نكث اليهود عهدهم مع الله ، وأن فلسطين أرض لأبنائها الذين عاشوا عليها قرونًا طويلة ، قبل ظهور الصهيونية ، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهودًا . غير أنه نتيجة أن العرب « ظاهرة صوتية » وأنهم يتصرفون كما لو كان الكلام بديلا عن العمل ،وأنه كلما علا الصوت زاد إرهاب العدو وتحقق ما يريدونه بقوة ، نتيجة لهذه الظاهرة غير السوية ، فقد تكلموا بعنف وارتفعت أصواتهم بشدة ، يشجبون أعمال العنف والإرهاب ، ويرفضون قرارات المجتمع الدولى ، ويتوعدون اليهود بإلقائهم فى البحر ، وهى أمور لم تُفدهم أبدًا ، وإنما فَرّغت قواهم وبددت طاقاتهم ، وصورت لليهود أن الكلام حقيقة سوف تقع ، وأن الصراخ طوفان سوف يغرقهم ، فزاد ذلك من إحساسهم بعدم الأمان .

وقد أدت الأيديولوجية اليهودية (الصهيونية) إلى مقابلتها بالأيديولوجية العربية (القومية العربية) ، التى وطّأت بشموليتها واتجاهاتها المطلقة إلى أيديولوجية أخرى إسلامية ، هى الإسلام السياسى ، التى تقوم على النمط الشمولى وبأنها تمثل المطلق .

بهذا انتهى الوضع إلى صراع بين أيديولوجيات تؤسَّس على المفهوم الدينى أو تستوى على الحق التاريخى ،فإذا كان اليهودى يمارس الحرب أو يباشر الإرهاب دفاعًا عن حق يراه مقدسًا ، فإن العربى يهدد بالحرب وينفذ عمليات انتحارية إثباتًا لحق يراه مقدسًا كذلك . والصراع بين الأيديولوجيات المطلقة ، كما النزاع بين الآراء المقدسة ، ينشأ من التطرف ثم يزيد التطرف بحيث يصعب تمامًا أن يحدث فيه تقارب لوجهات النظر

أو أن تتحقق منه تسوية بين الطرفين ، مما يقيم ويغذّى حالة « اللاحرب واللاسلم » أمدًا طويلاً ، حتى تتحلل النظريات المطلقة تدريجيًّا ، وتتفكك المذاهب الجامدة شيئًا فشيئًا .

تداعت الأحداث وتسلسلت الوقائع حتى أوجدت حالاً (حاليا) أزمة ثقة حادة ومستعصية بين العرب وإسرائيل ، ذلك أن العرب من خلال التجربة الواقعية ، منذ وعد بالفور حتى الآن ، صاروا على يقين كامل من أن إسرائيل تهدف وتعمل على الاستيلاء على كل أرض فلسطين ، شيئًا فشيئًا ، وقضمة بعد قضمة ؛ ولعلها بعد ذلك تسعى إلى تحقيق شعارها القائم « من النيل إلى الفرات : أرضك يا إسرائيل » . وفى سبيل الوصول إلى هذه الغاية فإنها تتذرع بالأمن الذى يقتضى الاحتفاظ ببعض المناطق المجاورة من بلاد أخرى : كمرتفعات الجولان أو الشريط الحدودى فى جنوب لبنان ؛ لكن دواعى الأمن قد تتواصل وتمتد فإذا بإسرائيل تضم إلى هذه المناطق مناطق مجاورة لها ، وهكذا دواليك . وفيما يتعلق بالشرق أوسطية فإن كثيرًا من العرب يرون أنها صيغة سياسية ماكرة لتقويض الجامعة العربية وتفكيك منظومة التعاون العربى ، وإدخال جسم أو أجسام غريبة ثقافيًا ومعتقديًا ولغةً إلى الكيان العربى ، لجذب بعض بلاده فى علاقات خاصة ، قد لا يكون فيها تكافؤ أو توازن ، وهى من ثم ، أى فكرة الشرق أوسطية ، تزيد من الشكوك ولا تفيد فى الحلول .

واليهود من جانبهم ، ومما وقر فى أسماعهم من ظاهرة العرب الصوتية ،وما استكنّ فى نفوسهم من تهديداتهم الكلامية ، صاروا لا يأمنون لهم أبدًا ، وهم أصلا غير آمنين ، يعتقدون أن تمكين الفلسطينيين من إنشاء

دولة لهم سوف يدفعهم إلى طلب مناطق أخرى ، ثم مناطق تالية ، حتى ينتهوا إلى أن يطلبوا ويعملوا على تقويض إسرائيل نفسها لاستعادة أرضهم السليبة .

فى هذا الجو المفعم بعدم الأمان وعدم الثقة يصعب جدًّا إيجاد حلول على مستوى الشعوب ذاتها . فلربما اتفقت حكومات فى معاهدات سياسية أو عسكرية تهدف بها إلى منع النزاع المسلح ، أو تأجيله أطول فترة ممكنة ؛ لكن هذا السلام الرسمى يظل على الدوام قلق غير مستقر ، يمكن أن ينقلب رأسًا على عقب بانتخاب حكومة جديدة كما حدث فى إسرائيل أخيرًا ، أو برصاصة تطلق على رئيس أو زعيم ، كما كان مناحم بيجين يردّد دائمًا .

ومن هذا المنطلق ، فإن التطبيع بين الشعوب لن يكون أمرًا قريب المنال ، مادامت أزمة الثقة قائمة وحادة ومستعصية . قد تنشأ علاقات فردية بين أشخاص من الجانبين ، لسبب أو آخر ، لكن التطبيع الاجتماعى المتشعب العلاقات والمتعدد المستويات لا يمكن أن يتحقق إلا بعد عمل جاد لإزالة أزمة الثقة بين العرب وإسرائيل ، كيما يحل محلها ضرب من الثقة وقدر من الأمان . وليس العبء فى ذلك على العرب وحدهم ، بل إن إسرائيل هى الطرف المساءل أولاً عن تبنى سياسة واقعية ، لا تقوم على مصلحة طرف مفرد ، وإنما تعمل على اكتساب ود الشعوب ومد جسور الثقة وبذر بذور التعاون ؛ بلا رغبة فى الانتشار السرطانى ، ولا عمل للتوسع والامتداد ، ولا تصرف فيه عدم الاحترام لمشاعر الغير وتاريخهم وحقوقهم الطبيعية .

وعندما تزول أزمة الثقة يمكن توطيد معايير جديدة للسلام ، لأن الحرب كارثة على الجميع ، سوف لا تقتصر نارها على الشرق الأوسط ،بل من المرجح أن يمتد لهيبها بعيدًا فى المكان وطويلاً فى الزمان .